

جرائم النهب الاقتصادي والعقاري في الجزائر إبّان الفترة

الاستعمارية منطقة بني صاف أنموذجا (1835-1948م)

Crimes of economic and real estate looting in Algeria during
the colonial period the Beni Saf Region (1835–1948)

✍ الأستاذ الدكتور: محمد قنانش

جامعة بلحاج بوشعيب - عين تموشنت



تاريخ النشر -	تاريخ القبول -	تاريخ الإرسال -
2024/12/31	2024/12/16	2024/11/26



- Summary:	- الملخص:
The article attempts to shed light on the subject of national memory and the issues of French colonial crimes in Algeria, specifically the looted properties during the ninth century and the first half of the twentieth century, including the looted properties in the Beni Saf region under the title: Crimes of economic and real estate looting in Algeria during the colonial period: 'The Beni Saf region as a model (1850-1954). In this direction, we will focus on vital sectors that were	يحاول المقال تسليط الأضواء على موضوع الذاكرة الوطنية وقضايا الجرائم الاستعمارية الفرنسية بالجزائر، وبالتحديد "الممتلكات المنهوبة خلال القرن التاسع والنصف الأول من القرن العشرين، ومنها الممتلكات المنهوبة في منطقة بني صاف تحت عنوان: جرائم النهب الاقتصادي والعقاري في الجزائر إبّان الفترة الاستعمارية: "منطقة بني صاف أنموذجا (1850-1954). سنركّز في هذا

subjected to terrible looting and exhausting exploitation during more than a century of direct depletion of the region's resources, mainly in the mining sector, agricultural real estate and fisheries production. To study this topic, a significant amount of local archives were used, supported by documents correspondence, figures and legislation, making the issue of memory a powerful testimony to the extent of the terrible French colonial looting of the country's resources in general, and in the Beni Saf region in particular.	الاتجاه على قطاعات حيوية تعرّضت لنهب رهيب واستغلال منهك، مدّة أزيد من قرن من الاستنزاف المباشر لخيرات المنطقة، تمثلت بالأساس في القطاع المنجمي والعقار الفلاحي والإنتاج الصيدي. ولدراسة هذا الموضوع، تمّ استغلال رصيدا هاما من الأرشيف المحلي، مدعما بوثاق ومراسلات وأرقام وتشريعات، جعلت من مسألة الذاكرة، شهادات قوية على درجة النهب الاستعماري الفرنسي- الرّهب لخيرات بلادنا عموما، وفي منطقة بني صاف على وجه الخصوص.
- Keywords:	- الكلمات المفتاحية:
Looting; Colonial France; Economy; Property; Beni Saf.	جرائم النهب؛ فرنسا الاستعمارية؛ الاقتصاد؛ العقار؛ بني صاف.

1- الإطار المفاهيمي

يتضمن الإطار المفاهيمي مدخلا لغويا وفكريا، من الألفاظ والمصطلحات التي يحتويها الموضوع، يتم من خلاله توضيح الدلالات تلك الكلمات والمصطلحات الواردة. لهذا الغرض وقع الاختيار على ثلاث مفاهيم لفظية ذات دلالات مركزية في دراستنا وهي:

الجريمة، المنطقة، النهب في شقيه الاقتصادي والعقاري.

1-1 / مفهوم الجريمة والمنطقة

الجريمة، تصرّف مخالف لما ترتضيه الجماعة يقوم به فراد أو جماعات أو مؤسسات أو تنظيم لإلحاق الضرر والفشل والأذى بالطرف الآخر. وعليه، فالجريمة منافية للضمير الخلقي وخروج عن السلوك الحضاري، ومتعارضة مع الشرع الديني والقانوني. يعرفها الأنثروبولوجي البريطاني ألفريد رادكليف (1881-1955): "أنها انتهاك للعرف السائد، ممّا يستحق الجزاء لمرتكبها"¹ ومن الناحية النفسية، فالجريمة إشباع للغريزة الإنسانية بطريقة شاذة. في الشرع الإسلامي، إن الجريمة فعل وانحراف مخالف للشرعية، يستحق الردع والتقويم².

في منظور علم الاجتماع، فإن علماء السوسيولوجيا يصنّفون أنواع الجريمة في 6 أصناف هي على التوالي³:

جرائم ضد الممتلكات، جرائم ضد الأفراد، جرائم ضد النظام، جرائم ضد الموارد الحيوية والبيئية، جرائم النسيج الاجتماعي الأسري، جرائم مخلة بأداب وأخلاقيات المجتمع.

أما المنطقة الوارد ذكرها في الموضوع، القصد منها الإقليم الجغرافيا الذي ينحصر فيه موقع مدينة بني صاف والنواحي المجاورة لها، ولكن في إطارها التاريخي الاستعماري.

يخضع التحديد الجغرافي للمنطقة لظروف تاريخية وظروف تشريعية وخصوصيات اقتصادية. تتجلى هذه الظروف العامة في قانون

الإلحاق الإداري الذي بات ساري المفعول منذ تاريخ صدوره في 22 جويلية 1834، وقانون فارنييه سنة 1873، وقانون التقسيم الإداري الخاص بالبلديات المختلطة والكاملة الصلاحيات الذي فرض على مدينة بني صاف منذ إنشائها مستوطنة كولونiale سنة 1883. زد إلى ذلك مقدّرات جغرافيتها الاقتصادية الممتلئة في ثروتها المنجمية الهائلة والسّمكية والنباتية المتميزة التي تم اكتشافها طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وإلى غاية طلائع القرن العشرين.

2-1 / مفهوم النهب الاقتصادي والعقاري

النّهب لغة وتاريخا أسلوب عدواني وسلوك إجرامي، يتجسّد أصلا في الاستحواذ على مصالح مادية بطريقة جائرة بهدف امتلاكها وابتزازها والانتفاع منها، ظاهرة معروفة في سجلات السياسات الاستعمارية منذ العصر الحجري وإلى غاية العصر النووي. ارتبط مفهوم النهب بالماضي الاستعماري، تمثل بالأساس في استغلال ثروات الشعوب وممتلكات المجتمعات من طرف القوى الاستعمارية البريطانية والفرنسية في العصر الحديث، وبلغ ذروته من قبل الشركات الرأسمالية الكولونiale الكبرى خلال ما يعرف بالعصر الامبريالي ما بين 1870 وإلى غاية 1914.⁴

إن مسألة النهب الاقتصادي والعقاري في المنظومة السياسية والثقافية الاستعمارية، مسألة أساسية يعتمد عليها الاقتصاد الكولونالي، في الهيمنة المطلقة على الموارد الباطنية والممتلكات العقارية، من أراضي فلاحية ومحاصيل زراعية وأسواق. من أجل ذلك، سخر المستعمر الفرنسي في بلادنا شركاته الاحتكارية لتنفيذ هذا الغرض، من بينها شركة "مقطع الحديد" (Mokta - El - Hadid) في منطقة بني صاف، التي أخذت على عاتقها مهمة نهب خامات حديد المنطقة، بلا انقطاع منذ أواخر القرن التاسع عشر وإلى غاية منتصف القرن الماضي.

2- التعريف بمنطقة بني صاف

الإشارة إلى التعريف بمنطقة بني صاف، يقتضي لزوماً التطرّق إلى مدينة بني صاف وتاريخها، باعتبارها المركز المحوري للمنطقة. إذا كانت منطقة بني صاف الفضاء الجغرافي من اليابسة والماء، الذي يحيط بالمدينة، فإن وجود هذا الفضاء هو جزء لا ينفصل عن تاريخ مدينة بني صاف، بل هو امتداد طبيعي وتاريخي لمونوغرافية المدينة.

2 - 1 . الهوية التاريخية

يعود تاريخ نشأة مدينة بني صاف إلى الحقبة الاستعمارية، كمدينة استيطانية، إلى سنة 1873 قرار من الحكومة العامة بالجزائر، الذي وضعها بلدية من الصنف الثاني، أي بلدية مختلطة (commune mixte). بعد سنوات، تحوّلت مدينة بني صاف إلى بلدية أوربية كاملة الصلاحيات (commune en plein exercice)، بمرسوم صدر بتاريخ 30 مارس 1883م⁵.

أنشئت المدينة على مساحة تبلغ 11875 هكتار، على ارتفاع 85 متراً، عدد سكانها حسب سنة 1926، وصل إلى 11541 نسمة، ينقسمون إلى قسمين: الأوربيون 4114 شخص والأهالي 7427 شخص⁶.

الهوية التاريخية للمدينة هوية استيطانية استعمارية أوربية بالدرجة الأولى من منطلق أنها بحكم المصلحة والقانون مركزاً كولونيالياً استيطانياً. بني صاف مدينة أوربية، تشكّلت في إطار المشروع الاستعماري الاستيطاني الذي تمّ تنفيذه على مدى سنوات من التهجير والاستيطان ومصادرة ممتلكات الأهالي، من خلال قوانين ومراسيم مجحفة، أسست لسياسة جرائم النهب الاقتصادي والاجتماعي المنظم. أنتج هذا المشروع في منطقة عين تموشنت مجموعة مستوطنات ذات طابع اقتصادي لفائدة الكولون، تقوم على استغلال مقنّن ونهب منظم لموارد المنطقة ومقدّراتها المادية والبشرية.

تذكر الكتابات التاريخية، أن أول تواجد أوروبي في منطقة بني صاف، كان يوم 20 أكتوبر 1835، حيث تمّ إنشاء أول مركز مراقبة بجزيرة

راشقون⁷. من هنا، فتح المجال لبسط نفوذ المدّ الاستيطاني على كامل المنطقة. ظهرت على الأرض عدّة مراكز استيطانية ابتداء من سنة 1851 وإلى غاية سنة 1928⁸. تتمثل هذه المستوطنات في البلديات التي تشكّل حالياً النسيج الإداري لولاية عين تموشنت، وهي: عين تموشنت والكيل سنة 1851، العامرية سنة 1856، عين الأربعاء سنة 1858، المالح وحاسي الغلة سنة 1859، بني صاف سنة 1873، حمام بوحجر وشعبة اللحم سنة 1874، أغلال سنة 1879، سيدي بن عدّة سنة 1880، عين الطلبة سنة 1890، تارقة سنة 1896، واد برقش سنة 1928⁹.

2-2- المكانة الاقتصادية والسياحية

تستمدّ منطقة بني صاف مكانتها الاقتصادية من مقوماتها الجغرافية والطبيعية، الأمر الذي أثار اهتمامات بل أطماع المستعمر الفرنسي، ليحوّل هذه المنطقة الغنية العذراء إلى مستوطنة أوربية، مسخرة في خدمة اقتصاد دولة المتروبول (France Métropolitaine).

إنّ المتتبع لجغرافية بني صاف، يلاحظ أنها ذات مكانة اقتصادية وسياحية منذ الفترة الاستعمارية. جعلها موقعها الجغرافي حلقة وصل بين شمال الغرب الجزائري، وجنوب أوروبا من جهة، ونقطة تواصل بين الجزائر والمغرب الأقصى. هذا المركز الجيوسياسي استغلته الإدارة الاستعمارية فيما بعد في استقدامها لليد العاملة الأجنبية وفي ابتزاز خيرات المنطقة وتصديرها، تلبية لحاجيات الصناعات الفرنسية¹⁰.

تحظى مدينة بني صاف بإمكانات متميزة أهلّتها أن تتبوأ مكانتها الاقتصادية، استغلّها المستعمر الفرنسي في خدمة مصالحه. واجهة بحرية، تمتدّ من شاطئ سيدي جلول شرقاً إلى شاطئ راشقون غرباً، على مسافة تزيد عن 20 كيلو متر. بعد اكتشاف خامات الحديد سنة 1859، ازدادت مكانتها الاقتصادية في اهتمامات فرنسا الكاؤنالية وتنامت أطماعها بشكل سريع. شكّل هذا الاكتشاف بداية النهب الاقتصادي للمنطقة، وذلك منذ نهاية القرن التاسع عشر وإلى غاية قيام ثورة نوفمبر المباركة سنة 1954.

المجالات الحيوية للسياحة في بني صاف وضواحيها، يعود أصلها إلى المواقع التاريخية التي كانت محلّ نهب واستنزاف من قبل المستعمر الفرنسي طوال الفترة الكولونiale. وفي هذا الشأن، نخصّ بالذكر مكوّنات منطقة بني صاف، نبدوها بمركز المدينة نواة التوسّع الاستيطاني. نضيف إليها التجمّعات المجاورة لها، بوكردان، دار الريح، غار البارود كامراتا، سيدي صافي، البراج، ميناء بني صاف، شاطئ البئر، شاطئ سيدي بوسيف، بالإضافة إلى 17 منشأة ريفية (les Douars).

3- النهب الاستعماري الاقتصادي والعقاري في منطقة بني صاف

تتحدث الكتابات التاريخية أنّ المواقع والمراكز التي سبق ورودها، هي التي كانت محلّ نهب كبير ومستمر من طرف المؤسّسات الاستعمارية الرأسمالية الفرنسية، العمومية منها والخاصة أيضا. نهب مدروس واستنزاف منظم ومقنّن لموارد منطقة بني صاف.

3-1- القطاع المنجمي

تاريخ بني صاف وما يحمله من تحولات، تاريخ يتصل مباشرة بالوجود الاستعماري. المستعمر الفرنسي بسياسته الرأسمالية الكولونiale، قام بتأسيس مدينة بني صاف، فرسم حدودها ونواحيها بتدرّج زمني منظم ومقصود. بعدما كانت المدينة ومناطقها المجاورة، إقليما جغرافيا معزولا مهجورا، بمرتفعات تصل إلى البحر ومنخفضات شكّلت ممرات ومنحدرات لمياه السيول والأودية، باتت مع الاحتلال هدفا استراتيجيا وبعدا اقتصاديا في يد الإدارة العامة لنهب مواردها في الجزائر.

شدّ القطاع المنجمي بعد اكتشاف خامات الحديد في بني صاف، أنظار قادة الجيش الفرنسي، وأثار انشغالات النظام الاستعماري. أضحي هذا الاهتمام مصدر سياسة النهب الاقتصادي والاجتماعي لخيرات المنطقة، وما ترتّب عنه من جرائم للمقدّرات المادية والبشرية على الأرض وساكنتها. صدر المرسوم الوزاري يوم 18 أفريل 1841، ليؤسّس للجرائم الاقتصادية

لمواردنا، بحيث أنه مكّن المعمرين من حق الشرعية في الاستيلاء على خيرات البلد، ومنحهم حق الملكية بكل أشكالها¹¹.

في حدود سنة 1855، دخلت ميدان الاستغلال المنجمي، شركة أجنبية انجليزية، تدعى "صومعا وتافنة" (Société Soumah et Tafna) فاشترت منشأتين لخامات الحديد، منشأة بورولييه (Bourellier) ومنشأة مونيوز (Munos). بعد ذلك بدأت أشغالها سنة 1867 في البحث والتنقيب، في كلّ من منجمي غار البارود ودار الريح¹². في هذا الاتجاه، تظهر لنا المصادر التاريخية أن جرائم النهب المقتن والاستنزاف الممنهج لثروات الغرب الجزائري، تمّ تنفيذها بإحكام، بعد سنوات من حملة 1830، استهدفت الاستحواذ على موارد الجزائريين ومصادرتها وتصديرها إلى المتروبول.

تنازلت الشركة الإنجليزية "صومعا وتافنة" عن جميع ممتلكاتها المنجمية في منطقة بني صاف وانسحبت، فتركت المجال مفتوحا للشركة الفرنسية "مقطع الحديد"، ذات النفوذ المالي والخبرة البنكية والعلمية في علوم البحر. في الفاتح من جانفي سنة 1879، شرعت الشركة مباشرة في استغلال ونهب ثروات مناجم حديد بني صاف¹³.

أظهرت المصادر الاستعمارية الاستيلاء على 15 منشأة من مواد الخام في الغرب الجزائري خصّت في مجملها مناجم الحديد والرصاص والنحاس. من أهمّها مناجم خامات الحديد في منطقة بني صاف، التي شرع في استغلالها بمراسيم حكومية في ما بين سنة 1856 وإلى غاية سنة 1926، نذكرها على التوالي: منجم كامراتا (Camérata)، شرع في استغلاله يوم 9 فيفري 1883، منجم دار الريح (Dar - Rih) يوم 22 فيفري 1899، منجم غار البارود (Ghar - Baroud) يوم 8 جانفي 1908، ومنجم سيدي صافي (Sidi - Safi) يوم 9 فيفري 1926¹⁴.

من أجل الإسراع بوتيرة النهب، اتخذت شركة مقطع الحديد جملة من التدابير، تخص تحسين عملية الاستغلال وتصدير خامات حديد المنطقة نحو السوق الفرنسية. من أهم تلك الآليات، إنشاء مركز المدينة أي مدينة بني

صاف، استقدام اليد العاملة الأجنبية إنجاز الميناء، مدّ الخطوط الحديدية. كل هذه الإجراءات تدلّ بصدق على أن جرائم النهب الاقتصادي، كما قلنا سابقا، كانت عملية مدروسة، منظمة، ومقنّنة، نفذتها الإدارة العامة في الجزائر بحزم وإحكام.

تبين الدّراسات والكتابات التاريخية أن القطاع المنجمي في المنطقة الذي ستتولّد عنه مدينة بني صاف وضواحيها، كان النواة الحقيقية لتأسيس المدينة الاستيطانية المنجمية بغرب القطاع الوهراني (L'Oranie). فاكشاف خامات الحديد كان الدافع الرئيسي في إنشاء هذه الحاضرة المنجمية (la Cité Minière). يعدّ ظهور المدينة منطلق سياسة النهب الاقتصادي، المنجمي بالدرجة الأولى، والذي سيستمرّ إلى غاية قيام ثورة نوفمبر المجيدة سنة 1954 كانت وراء جرائم النهب الاستعماري المنظم والابتزاز السريع والمكثف لخامات حديد المنطقة، آليات مدروسة وضعتها الإدارة العامة، نوردها على النحو التالي:

- **تفعيل المنظومة التشريعية:** يبرز تاريخ المدينة أن بني صاف وضواحيها، باتت ميدانا مباشرا لتفعيل القوانين الاستعمارية على الأرض. على الصعيدين الديمغرافي، فتحت هذه التشريعات بوابة الهجرة والتجنيس والاستيطان في المنطقة¹⁵. تمّ ذلك من خلال تطبيق مرسوم سيناتوس كوسيلت 1865، مرسوم كريميو 1870، ومرسوم تجنيس أبناء المعمرين 1889. كلّها تشريعات رامية إلى مضاعفة الوتيرة الديمغرافية في المنطقة.

- **إنشاء المدينة "مدينة بني صاف":** إنشاء المدينة، تمّ في عهد حكم الجمهورية الثالثة بقرار من الحاكم العام شانزي (Chanzy)¹⁶. من هنا بدأت عملية الاستيطان الأوربي واستقرار اليد العام الأجنبية على الأرض وتشغيلها في استنزاف مناجم المنطق. ظهرت بني صاف كبلدية مختلطة سنة 1874، تابعة للدائرة الإدارية بالرّمشي، ثمّ تحوّلت إلى بلدية كاملة الصلاحيات سنة 1883¹⁷.

- **ثروة خامات الحديد:** أثارت اكتشافات خامات الحديد بالمنطقة أطماع المستعمر الفرنسي، ودفعته إلى تنفيذ سياسته الرأسمالية القائمة على النهب والاستنزاف للخيرات المادية والبشرية. النتيجة، ظهور بني صاف، مدينة منجمية بامتياز، شأنها شأن مدينة حاسي مسعود البترولية بجنوبنا الكبير. ساهمت الثروة المنجمية مباشرة في ميلاد النواة الحقيقية في إنشاء المدينة مع مطلع سنة 1874 ومينائها سنة 1881¹⁸.

- **إنجاز الميناء سنة 1881:** استراتيجية الموقع الجغرافي على الشريط الساحلي الغربي، زاد من اهتمام عملية النهب، بأقل كلفة وأسرع وتيرة نحو أسواق المتروبول. في هذا الاتجاه أوكلت الإدارة العامة مهمة إنجاز الميناء، "ميناء بني صاف" إلى شركة مقطع الحديد المالكة للعقار والمال، فأنجزت الميناء مدّة 5 سنوات كاملة، ابتداء من سنة 1875 وإلى غاية 1881، مساحة حوضه 17 هكتار، وبطاقة رسوّ، لا تتعدّى 40 مركباً¹⁹.

- **مدّ الخطوط الحديدية:** بداية مدّ شبكة السكّة الحديدية بالمنطقة، انطلقت نهاية القرن التاسع عشر، تزامنا مع اكتشافات خامات الحديد، والغاية منها الإسراع بتحقيق مشروع النهب الاقتصادي لمقدّرات الجزائر المستعمرة في القطاع الغربي. حظي القطاع المنجمي سنة 1882 بخطّين حديديين على مسافة 3 كيلومتر، الخط الأول ينطلق من منجم "غار البارود" جنوب مدينة بني صاف، والخط الآخر يبدأ من منجم دار الريح بشرق المدينة²⁰. يتمّ نقل خامات الحديد عبر الخطّين، في عربات القطار باتجاه الميناء، ليتّم تصدير المادة الأولية نحو ميناء مرسيليا بالدرجة الأولى.

تنقل لنا إحصائيات ذات السنة، ما تمّ تصديره من أطنان خامات الحديد من بني صاف إلى فرنسا، مجموع 369.804 طن من معدن الحديد، كممتلكات منهوبة عبر خط بحري يتكوّن من 205 باخرة بخارية (Vapeurs)، و210 باخرة شراعية (Voiliers)²¹.

- **الاستيطان والمصادرة:** بدل المستعمر الفرنسي كل الجهود وافتعل كل المحفزات لجلب العنصر الأوربي ليستوطن بأرض الجزائر مهما كان

الثمن. فتح لهؤلاء الدخلاء كل أبواب التشجيع والإغراء بالمجان، فمنحهم امتيازات هائلة. غاية الاستعمار من وراء تعمير المنطقة، كسب اليد العاملة الضرورية والمطلوبة لتنفيذ مخطّطه الاستدماري، المتمثل في نهب ثرواتنا واستعباد فئات المجتمع الجزائري. أول حضور استيطاني، بدأ بهجرة الفقراء والمعوّزين من البحارة والصيّادين الإسبان من مدن الجنوب. كان ذلك سنة 1850 من قبل عائلات من المهاجرين قدموا من مدن ألميريا (Almeria)، استقرّوا بشاطئ واد أحمد (سيدي بوسيف حالياً). بعض العائلات من الإسبان اشتغلت في ممارسة الصيد البحري وعائلات أخرى وجدت نفسها في القطاع المنجمي، مثل عائلة ميجال (Miguel)، ومونيز (Munos)، وكوميز (Gomez)²². كانت هذه الهجرة الإسبانية النواة الأولى لتعمير المنطقة عن طريق الاستيطان الأوربي.

تبرز لنا المصادر التاريخية والكتابات المتخصصة، بطء العملية الاستيطانية التي بدأت في المنطقة مع سنة 1852، بقدم عائلات من الصيادين الذين تمركزوا بشاطئ واد أحمد.

استقرّ بشاطئ واد أحمد 210 صيادا سنة 1852 ليرتفع العدد إلى 1950 صيادا سنة 1883²³.

ولكن سرعان ما أخذت حركة الاستيطان وتيرة أسرع مع اكتشافات خامات الحديد وإنشاء الميناء، وفتح المجال أمام اليد العاملة الأجنبية وتشغيلها في القطاع المنجمي. تكشف لنا الإحصائيات مسألة الاستيطان السريع في منطقة بني صاف، على النحو التالي²⁴:

1954	1940	1936	1926	1903
21.098	18.840	13.747	11.541	6.747
نسمة	نسمة	نسمة	نسمة	نسمة

أفرزت الظاهرة الاستيطانية في بني صاف، بنية ديمغرافية متعدّدة العناصر، منذ نهاية القرن التاسع عشر، إلى منتصف القرن الماضي، وهي على الشكل التالي²⁵:

العنصر الأوروبي أغلبه من الإسبان اشتغل في القطاع المنجمي أواخر القرن التاسع عشر، قدموا من جنوب إسبانيا، معظمهم من مدن أليكانت وفالنسيا. تحوّل بعضهم إلى الصيد البحري بعد إنشاء لميناء. العنصر العبري من يهود وهران وتلمسان، تجنسوا بمرسوم كريميو (24 أكتوبر 1870)، استقرّوا في وسط المدينة. العمال المغاربة في القطاع المنجمي.

العنصر المسلم (جزائريون ومغاربة) حسب إحصائيات سنة 1931، يمثل 64%، الإسبان نسبتهم 43% من إجمالي السكان الذين بلغ عددهم 12.000 نسمة²⁶.

- استقدام اليد العاملة واستنزافها: استعانت شركة مقطع الحديد المنجمية في منطقة بني صاف، إلى استقدام اليد العاملة بغرض التعجيل بعملية النهب السريع للموارد. فلجأت فرنسا إلى البلدان المجاورة، من محمياتها في المغرب، وحليفاتها إسبانيا. تظهر لنا الأرقام سنة 1903 عدد الأجانب في بني صاف، الإسبان 1.629 شخصا والمغاربة 2.137 شخصا والجزائريين (الأهالي) 2.387. أغلبهم يشتغلون في القطاع المنجمي والبعض الآخر في القطاعين، الصيد البحري والعقاري الفلاحي بمزارع الكولون.

تذكر التنظيمات النقابية في بني صاف درجة الاستنزاف الرهيبة التي يتعرّض لها العمال في المناجم، وظروف العمل الصعبة، تدني الأجور. من بين النقابات التي كشفت بوضوح تلك التجاوزات، بدءا من سنة 1929 وإلى غاية سنة 1939، نقابتا القوة العملية (Force Ouvrière) والكونفيدرالية العامة للشغل (Confédération Générale du Travail).

تعدّ هذه دلالات، شهادات حقيقية عن سياسة النهب المعتمدة في النهب المباشر للممتلكات ولجهود العمال من طرف المستعمر.

3-2- القطاع الفلاحي: يشمل العقار الزراعي والصيد البحري، اللذين لم يسلموا من الاستغلال الكولونيالي لمقدّراتهما، بل طالته هو الآخر جرائم النهب الاقتصادي. فالشركة المنجمية الفرنسية "مقطع الحديد"، هي

التي استحوذت على جميع الممتلكات بما فيها العقار الفلاحي والقطاع الصيدّي. من أجل إنجاح مخطّطها الاقتصادي القائم على نهب الخيرات وتحويلها إلى المتروبول، ركّزت الشركة الاستعمارية على آليات مدروسة وتدابير واضحة، تتمثل في ما يلي: السيطرة على المساحة الزراعية عن طريق الاستيطان والامتياز الجبائي، التحكم في وسائل الإنتاج، التركيز على النقل البحري، إقامة زراعة نقدية تجارية في مجال الكروم والزيتون والحوامض والمنتوج السمكي بالمنطقة.

تعرّض القطاع الفلاحي إلى تفكيك المساحة الزراعية إلى وحدات إنتاجية لتشكيل ضيعات ومزارع للطبقة المتوطنة من الكولون. وعلى إثر ذلك شهدت منطقة بني صاف، مجموعة من المزارع (Fermes coloniales) تتمثل في 20 منشأة زراعية كولونiale، تمّ استحداثها في منطقة بني صاف في ما بين 1900 وإلى غاية 1954. نذكرها على النحو التالي:

مزرعة دولاك، دوراك، كاستيلهان، كوهين، لوباز، ميلي، ساهيت، دولماس، كاتھالا، راميراز، فانسان، دالقادو، شنتال، ويسات، بونتادورا، أكسيميناز، كاراز، باريت، شولي ومزرعة. لابيبي لزاريتيتش²⁸.

تظهر لنا المعطيات الإحصائية لسنة 1939، أن الواقع الفلاحي متميز، يحتلّ المركز الثاني بعد القطاع المنجمي، ويتضح الأمر من خلال الأرقام الآتية²⁹:

المساحة الصالحة للزراعة 7.700 هكتار، المروية منها 170 هكتار. الملكية العقارية، الخاصة منها 5.200 هكتار، والجماعية 3.400 هكتار. كما سبق لنا، أن عدد المنشآت العقارية بلغ 20 مستثمرة كولونiale، استحوذت على المساحة والملكية، ووجهتها نحو الزراعة التجارية في مقدّماتها إنتاج الكروم وتفعيل معاصر الخمور. خير مثال على ذلك مستثمرة المستوطن الأوربي الصربي لابيبي لزاريتيتش (Lapébie Lazarewitch). تبلغ مساحة هذه المزرعة 1940 هكتار، منها الكروم 382 هكتار، أراضي الحبوب والخضر 1.130 هكتار، المسالك 428 هكتار، وتلي مباشرة في المرتبة الثانية مستثمرة

المستوطن الفرنسي جاك باريت (Jacques Barret)، بمساحة 750 هكتار. في حين، تملك الشركة الاستعمارية الفرنسية المنجمية مقطع الحديد، عقارات زراعية، مساحتها 3500 هكتار³⁰.

زيادة عن ابتزازه لطاقات الإنتاج الزراعي والعقاري، امتدّت أطماع المستعمر إلى توسيع دائرة النهب الاقتصادي، بمدّ اليد على ممتلكات القطاع الصيدّي واستقدام اليد العاملة المحلية والأجنبية. في هذا الإطار، تمّ تشغيل في المنشأة الزراعية بالبراج العمال الأجانب الذين وصل عددهم سنة 1939 أزيد من 120 عاملا زراعيا، 70% منهم مغاربة. مقابل ذلك، تمّ توظيف اليد العاملة من الإسبان في ممارسة النشاط الفلاحي والصيدّي، وبعد سنوات أصبح هؤلاء من كبار الملاك في هذين القطاعين. بعد الأزمة الاقتصادية العالمية وإلى غاية قيام الحرب العالمية الثانية، باتت بني صاق بمقدّراتها المنجمية والزراعية والسمكية، مثار جذب لليد العاملة الأجنبية، وذلك تشجيعا من قبل الإدارة العامة.

تذكر الإحصائيات المحلية سنة 1939 عدد العمال الأجانب في بني صاف ما يلي: الإسبان 1429، المغاربة 2138، الإيطاليون 35، الصّرب 02، البرتغاليون 3105³¹. تحوّل الإسبان إلى طبقة من الملاك الكولون في المزارع والصيد البحري، وأصبح كل من المغاربة وأهالي بني صاف، عمّال يوميّين أو "الأقنان"، يتجرّعون مرارة الاستغلال الكولونيالي البشع بأجور واطئة، لا ترقى أحيانا إلى مستوى ضمان رغيف الخبز.

انتعش الاقتصاد المحلي لمصلحة الكولون وبدأت تظهر ثماره في جرائم النهب الاقتصادي على حساب سحق الطاقات المحلية للجزائريين في بني صاف. مردود إنتاج الكروم، وطاقات الإنتاج السمكي، وتنوّع صادرات المستعمر، كلها دلالات دامغة على ذلك. تشير إحصائيات شهر سبتمبر 1939 نوعية الملكية العقارية وطبيعة ملاكها، على النحو التالي³²:

الوحدات الصغرى، ما بين 10 إلى 20 هكتار، تمثل وحدها نسبة 70% من المجموع.

الوحدات الكبرى في يد شركة مقطع الحديد المنجمية 3500 هكتار، منشأة البراج 1800 هكتار، مزرعة جول باريت 750 هكتار، وحدات أخرى ما بين 200 و300 هكتار.

تمثل هذه الملكيات نوعا جديدا من الاستثمار الفلاحي في المنطقة، يخص إنتاج محاصيل صناعية، الكتّان (le Lin)، الصورغو (le Sorgho)، والفول السوداني (les Arachides).

بما أنها تحتل هذه الزراعة المرتبة الثانية بعد زراعة الكروم والزيتون، عدد الملاك بها، 11 فرنسيا، 17 من المتروبول، 138 مسلما (جزائريون)، 9 يهود. العمال الزراعيون الذين يشتغلون في هذه الوحدات، هم في أغلبهم موسميون من المغاربة³³.

زيادة عن ذلك، زراعة الكروم مع الصيد البحري قطاعا حيويا في استراتيجية النهب الاقتصادي والاقتصاد الريعي. تبلغ مساحة الكروم 940 هكتار، أنتجت سنة 1939 ما يصل إلى 70 ألف برميل خمر بحوض تافنة، بمعدّل 30.687 هيكولتر. أما الصيد البحري فإنه العصب الحي في يد العصابة الكولونيالية من العنصر الإسباني. يتكوّن أسطول الصيد من 77 مركب صيد حسب سنة 1939، 22 وحدة صيد للسّمك الأبيض (chalutiers)، 42 وحدة صيد للسّمك الأزرق (lamparos)، و13 لسّمك الحوت (palangriers). شغل القطاع في ذات السنة 690 عاملا، وتشغل وحدات مصبّرات الأسماك 760 شخصا، منهم ما بين 100 إلى 150 عاملا بوحدي التعليب (conserves)، و18 وحدة للتمليح (salaisons) بها ما يربو عن 500 عاملا. أنتجت هذه الوحدات كلّها 3.400.000 كيلوغرام من أسماك مملّحة، و600.000 كيلوغرام من أسماك مصبّرة³⁴. اندلعت الحرب العالمية الثانية سنة 1939، وظل القطاع الصيدي بني صاف المورد الرئيسي الممّون الفعلي للنهب الكولونيالي إذ تبين لنا الأرقام إجمالي الإنتاج من الأسماك 3.140.238 كيلوغرام، من شهر مارس وإلى غاية شهر أوت 1941 شمل 729.770 كيلوغرام من السّمك الأبيض و2.410.468 كيلوغرام من السّمك الأزرق.

أخذت جرائم النهب الاقتصادي وجهتها الحقيقية الصحيحة، نحو أراضي المتروبول، لتلبية حاجيات السوق الفرنسية، والأسواق الأوربية. في هذا الإطار، تمّ تصدير خامات الحديد والخبور نحو فرنسا، واتجهت مادة الكتّان النباتي وحدها إلى أسواق أوربية واسعة إلى فرنسا، بلجيكا، إنجلترا، وألمانيا، ومصّرات الأسماك نحو فرنسا وإيطاليا³⁵. تتمثل في صادرات الشبّوط (les Anchois) والسّردين المعلّبة (la Sardine). ولكن المثير للنظر أن أكبر سوق لصادرات بني صاف في عملية ما نسّميه بالنهب الاقتصادي، مادة الخبور التي تذهب مباشرة إلى الأسواق.

أفرزت سياسة النهب الاقتصادي طبقة رهيبة في منطقة بني صاف، إذ أصبح العنصر الأوربي، الطرف المتسيّد في تسيير دوايب اقتصاد المنطقة، في الفلاحة، الصيد البحري والمناجم. الفرنسيون هم أسياد الإدارة واليد العاملة الفنية، إلى جانبهم الإسبان الذين يعملون تحت وصايتهم. أما السكان المحليون، هم من الطبقة الكادحة، لا تملك سوى جهد عملها وعرق جبينها. تمخض عن جرائم النهب الاقتصادي والتفاوت الطبقي، شكل جديد من التحوّل السوسيولوجي للمدينة الناشئة، فأصبحت بامتيان.

وعلى مستوى القطر الوطني أول حاضرة عمالية مطلّية منجمية (Cité Minière Ouvrière)، نشأ فيها التيّار اليساري الفرنسي وترعرع بسرعة، بشقيه الحزبي والنقابي. امتدّ نفوذ الحزبين الاشتراكي (S.F.I.O) منذ ظهور سنة 1905، الحزب الشيوعي (P.C.F) منذ تأسيسه سنة 1922 إلى القطاعين المنجمي والصيدى، فظهرت أولى النقابات الفرنسية الكونفيدرالية العامة للشغل (C.G.T)، والقوة العاملة (F.O) فيما بعد³⁶. وهكذا، تأسّست أولى النقابات المهنية المنضوية تحت الكونفيدرالية يغلب عليها العنصر الإسباني. أول فرع نقابي في الصيد البحري رأى النور في 16 مارس 1929، يتكون على التوالي من رويوز فرنسوا أمنيا، باتيستا جوزيف أمين مساعد، غارسيا جاك أمين مالية، لاتوريس جوزيف أمين مالية مساعد، مساعدين كل من غارسيا طوماس، غارسيا بيير، وآلونسو جون³⁷. أما في القطاع المنجمي نذكر أعضاء مكتب الفرع النقابي في الجمعية العامة

المنعقدة في 23 سبتمبر 1936 بالأسماء التالية: غونزاليس غابريال أمين عام، أوبيروس جوزيف أمينا ميراييس جون أمين مساعد تور غاسبار أمين مالية، نوغاريت إميل أمين مالية مساعد، والأعضاء كل من أندريس أنتوان، سانتشيس هنري، ميليرو مانويل، ألبالاديو إميل، سانتشيس مانويل، غارسيا أنتوان، وعنصرين من أهل البلد، لخضر ولد علي، مصطفى برحيل³⁸.

على هذا الحال، تحوّلت بني صاف إلى مستوطنة أوربية، تتحكم في مواردها شركات وأرباب العمل، ويسيرها يسار حريص على مصالح المتروبول في الجزائر المستعمرة. يسار أوربي، أغلبه من الإسبان، تفانى في نشر لغته وفكره في ربوع المدينة وأهلها بالإشراف على شؤون البلدية ونقابة محيطها المهني، وبسط ثقافته بإطلاق أسماء من نخب اليسار الفرنسي على أهم شوارعها ومدارسها الابتدائية. شارع جون جوريس (Jean Jaurès) والمدرسة الابتدائية للإناث ليو لانغرانج (Léo Lagrange)، والمدرسة الابتدائية للذكور ببيير بروسوليت (Pierre Brossolette)، والمدرسة الابتدائية بول لونجوفان (Paul Langevin)، بشاطئ البئر. تعتبر هذه المسميات في نظرنا من جرائم الاستعمار في دحض مقومات هويتنا. لذلك سرعان ما اندثرت اليوم تلك الأسماء بعد استرجاع الجزائر لسيادتها الوطنية، فحمل شارع جون جوريس اسم الشهيد قادري قدور، مدرسة الإناث اسم ابن سينا، ومدرسة الذكور أبو حامد الغزالي، ومدرسة شاطئ البئر ابن باديس.

انغرس التيار اليساري في تسيير المجموعة المحلية، فأصبح المدير الأسبق للقطاع النجمي السيد جوزيف نوال (Joseph Noel) أول رئيس لبلدية بني صاف سنة 1921، وفي سنة 1929، انتخب اليساري من الحزب الاشتراكي، المعلم راوول فينيو (Raoul Vignaux)³⁹.

بعد سنوات تحوّلت بني صاف إلى فضاء واسع، انتعش فيه التيار الفرنسي اليساري الذي حرص كل الحرص، على حماية مصالح المستعمر على حساب السكان الأصليين. أفرز هذا التناقض ردود فعل قوية للجزائريين في مقاومة جرائم النهب الاقتصادي وما ترتّب عنه من إقصاء اجتماعي وثقافي على مستوى منطقة بني صاف كلّها. أفضت هذه التحوّلات إلى قلق

شعبي شديد، ترجمته ردّة الأفعال، في أضخم الاحتجاجات والإضرابات التي عرفها قطاع المناجم والصيد البحري فيما بين 1919 و1948⁴⁰.

2- استنتاجات

انطلاقاً ممّا تقدّم، ومن خلال مقاربتنا لثنايا جرائم النهب الاقتصادي في منطقة بني صاف وخفاياه، علينا أن نصل إلى الاستنتاجات التالية:

- الاستعمار الفرنسي في الجزائر، استعمار في مظهره عسكري، وفي عمقه استغلالي، اتخذ من الاستيطان آلية لبسط نفوذه الرأسمالي لنهب خيرات المنطقة.

- أظهرت التجربة الاستيطانية في بني صاف، أن المستعمر استهدف الجزائر لتكون خزاناً بشرياً من المستوطنين، لتشكيل مجموعة ديمغرافية متعدّدة الأجناس والأبعاد.

- يحيلنا تاريخ استغلال خامات حديد بني صاف على اكتشاف شبه صراع خفي بين فرنسا وإنجلترا، أي بين شركة "صومعة تافنة"، وبين شركة "مقطع الحديد"، انتهى في هدوء بلغة تبادل المصالح بين القوتين الاستعماريّتين.

- جرائم نهب الممتلكات في المنطقة وغيرها، دلالة على وحشية المستعمر الفرنسي، في ابتزاز مقدّرات الجزائر واستنزاف ثرواتها.

- المشروع الاستيطاني الاقتصادي الرّهيب التي عرفته المنطقة وأهلها، بدأ بشكل جلي وخطير في عهد الجمهورية الفرنسية الثالثة (1870-1940)، فكانت منطقة بني صاف نواته الأولى على مستوى كامل مستعمرة بشكل خاص.

- الملفت للنظر، أن المادة الأولى من أطنان الحديد الهائلة، التي تمّ بها إنجاز برج أيفل (Tour Eiffel) سنة 1889، كانت في الأصل من خامات حديد بني صاف المنهوبة.

- نتج عن جرائم الممتلكات المنهوبة في القطاع المنجمي والصيدى والعقاري في منطقة بني صاف ظهور طبقية، سحقت حقوق الأهالي وجعلتهم أشباه أقنان في يد الشركة المنجمية الاستعمارية وعصابة الكولون (le Colonat).
- ظلّ الإسبان في معظمهم يحتكرون قطاع الصيد البحري، فنهبوا ثرواته ونشروا لغتهم في أوساط العمال والفئات الكادحة، فأصبحت لغتهم منافسة للفرنسية في منطقة بني صاف. والبعض الآخر منهم، بات إلى جانب الفرنسيين، من أرباب الكولون في استغلال العقار الفلاحي ونهب موارده، في كبريات مزارع الكروم والزيتون وأقبية الخمر.
- كل هذه التحوّلات، أفرزت في بني صاف، نشوء ما يعرف بالحركة المطالبة العمالية لأول مرة في تاريخ المستعمرة. حركة عمالية من تاريخنا الاجتماعي، غدت روافدها التنظيمات الفرنسية اليسارية، الشيوعية منها والنقابية.
- يبقى في النهاية مفعول الممتلكات المنهوبة في منطقة بني صاف وغيرها من وطننا الكبير جرائم رهيبة، تحييها الذاكرة الوطنية كل سنة، لنستحضر بشاعة المستعمر الفرنسي ومظالمه، التي لا تسقط بالتقادم.

- الهوامش -

- 1- غني نار حسن القريشي، علم الجريمة، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمّان، 2011، ص 23، 24.
- 2- جمال معتوق، مدخل إلى علم الاجتماع الجنائي، دار الكتاب الحديث، القاهرة، مصر، 2014، ص 38.
- 3- غباري محمد سلامة محمد، في مواجهة الدفاع الإجرامي ضد الجريمة والانحراف، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، مصر، 2005، ص 16.
- 4- ينظر إلى جويس أبلبي، الرأسمالية ثورة لا تهدأ، ترجمة رحاب صلاح الدين، منشورات مؤسسة هنداي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2012.
- Voir aussi, Michel Beaud, Histoire du capitalisme 1500-2010, 6^{EME}, Editions du Seuil, Paris, France, 2010.
- 5- Origines des communes algériennes, mairie de Béni-Saf, département d'Oran, archives de documentation, boîte n° 34 13 janvier 1926, Algérie.
- 6- Origines des communes algériennes, mairie de Béni-Saf, Ibid, 1926.
- 7- Lethielleux Pierre Jean, le Littoral de l'Oranie occidentale, éditions centre de documentation économique et sociale, (C.D.E.S), Oran, Algérie, 1974, p203.
- 8- Abadie Louis, Ain -Témouchent de ma jeunesse, éditions Jacques Gandini, Nice, France, 2004, pp50-130.
- 9- Abadie, Ibid, pp130-158.
- 10- Florian Louis, Conquête et colonisation de l'Algérie par la France (carte), Atlas historique de la Méditerranée de l'antiquité à nos jours, éditions Flammarion, Paris, France, 2022, p72. (Voir site : www.autrement.com).
- 11- Archives de la wilaya d'Oran, le département d'Oran et son conseil général 1830-1929, volume 01, p204.
- 12- Lethielleux Pierre Jean, le Littoral de l'Oranie occidentale, op.cit, p224.
- 13- Lethielleux Pierre Jean, Ibid, p224.
- 14- Archives de la wilaya d'Oran, le département d'Oran et son conseil général, op.cit, p268.
- 15- مفهوم المنطقة الوارد في الموضوع، نعني به جغرافية مدينة بني صاف والنواحي المحيطة بها، انطلاقاً من بداية اكتشاف مناجم خامات الحديد، إلى نشأة المدينة، إلى ظهور الأحياء الحضرية فيها الخاصة بالاستيطان الأوربي، وصولاً إلى مزارع الكولون والتجمّعات الريفية من مداشر ودواوير (Douars et Hameaux) المحيطة بتخوم المدينة.

16- الجنرال شانزي (1823-1883)، رجل عسكر فرنسي، اسمه الكامل "أنتوان ألفريد أوجين شانزي، نصّب الماريشال ماك ماهون حاكما على الجزائر سنة 1872 وأصبح قائدا للقوات البرية في 10 جوان 1873. أحد الشخصيات الوفية لسياسة الاستيطان والتوسع والمصادرة التي نهجتها الجمهورية الثالثة. هو الذي وضع حجر أساس مدينة بني صاف سنة 1874.

Cf / Voir Arthur Chuquet, le général Chanzy 1823-1883, librairie Léopold Cerf, Paris, France, (année d'édition non citée).

17- Origines des communes algériennes, mairie de Béni-Saf, département d'Oran, boîte n° 34, op .cit, 13 janvier 1926.

18- Lethielleux Pierre Jean, op. cit, pp224-225.

19- Archives de la commune de Béni-Saf, Entreprise Portuaire de Béni-Saf, 1960.

20- Lethielleux Pierre Jean, op. cit, p225.

21- Lethielleux Pierre Jean, Ibid, p225.

22- Lethielleux Pierre Jean, Ibid, p223.

23- Lethielleux Pierre Jean, op. cit, p223.

24- Archives de la commune de Béni-Saf, boîte n° 34, 1926-1954.

25- Marynower Claire, Béni-Saf entre Algérie, France et Espagne (1929-1939), in cahiers de la Méditerranée, 2017, p3.

26- Marynower Claire, Ibid, p3.

27- Dictionnaire des communes de l'Algérie, villes, villages, hameaux, douars, oasis, mines, carrières..., édition Pierre Fontana, Alger, 1903, p34.

28- L'Echo d'Oran, 8-10 Mai 1956.

29- Archives de la commune de Béni-Saf, fiche économique, boîte n°34, d omaine El - Bradj, Algérie, 1939-1940.

30- Fiche économique, Archives de la commune de Béni-Saf, boîte n°34, Algérie, 1939-1940.

31- Rapport sur la main-d'œuvre à Béni-Saf, archives de la commune de Béni-Saf, boîte n°34, 1939.

32- Fiche économique de Béni-Saf, Ibid, 1939, p2.

33- Fiche économique de Béni-Saf, Ibid, p4.

34- Ibid, p4.

35- Ibid, p4.

36- Syndicats des inscrits maritimes, marins pêcheurs et assimilés de la commune de Béni - Saf, Syndicats professionnels, département d'Oran, archives de Béni - Saf, 27 février 1929.

- ينظر إلى: قنانش محمد، الحياة النقابية في القطاع الوهراني فيما بين 1929 و1939، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة، 2007.

- S.F.I.O: Section Française de l'Internationale Ouvrière, P.C.F: Parti Communiste Français, C.G.T: Confédération Générale du Travail, F.O: Force Ouvrière.

37- Syndicats des inscrits maritimes, marins pêcheurs et assimilés de la commune de Béni - Saf, Ibid, **1929**.

38- Extrait du registre des délibérations, archives du syndicat de ouvriers mineurs de la compagnie Mokta-el-Hadid, Béni - Saf, **9 octobre 1937**.

- ملاحظة: أسماء المدارس الابتدائية، كلها أسماء نخب من فلاسفة، سياسيين مؤسسين،

كتاب وفيزيائيين من التيار الساري، من اشتراكيين وشيوعيين. بدير بروسوليت: **1903-**

1944، ليو لانغرانج: **1900-1940**، جون جوريس: **1859-1914**، بول لونجوفان **1872-**

1946.

39- Marynower Claire, Béni-Saf entre Algérie, France et Espagne (**1929-1939**, op.cit, pp6-7.

40- Voir Nora Bénallègue Chaouia, Algérie, Mouvement ouvrier et question nationale **1919-1954**, O.P.U, Alger, **2005**.